الى طور البشر فيسلبوا الانسانَ بذلك قوّة ارادته واختياره. فانهم بهذا العمل يجعلون المرء لُعبةً بين يدي امياله وحواسه وجهازه تتجاذبهُ الحوادث كيفما تقلّبت وتقوده طَوْعَ العنان

هذا ما رأينا اثباتهُ في تعريف القوّة الراهمة في الحيوان. فلا نخال القرّاء الكرام يفسروننا الى العدول عن جادّة الصواب لأنّ مذهبنا يحيد عن ضلال من لا يميّز الغريزة عن سائر الحواسّ فيُوقف افعالها على مجرّد لذّة المشاعر ثمّ يفرزنا عنّ يخلط بين الغريزة والملكات المكتسبة ويفصل اخيرًا بيننا وبين قوم أتقياء ينسبون فاعلية الراهمة الى الطبيعة ومنشئها عمومًا دون التصدّي الى حلّ عقد المسألة الخاصّ واستقصاء المحوَر الخفيّ الدائرة عليه المعضلة كلها جمعاء. والسلام

درس العربية في اوربّة

في القرن السادس عشر

نبذة للاب هنري لامنس اليسوعي (تتمّة)

وكان الكتاب الذي اختارهُ نونيوس ليعلّم بهِ تلميذهُ كليزد اللغة العربية كتاب الانجيل مضبوطًا بالشكل الكامل. فسُرَّ بهِ الطالب ولا سرور البخيل الذي يجد كنزًا مطمورًا. ولمّا انتهت ساعة التدريس رخّص لهُ معلمهُ بان يأخذ الكتاب الى منزلهِ فطار لذلك فرحًا واسرع الى غرفتهِ وانكبّ على مطالعة فصلهِ الاول اي سلسلة نسب المسيح للقديس متى حيث توفرت الاعلام الاعجمية. فاستدلّ على الحركات الثلاث وتعرّف بالضوابط كالهمزة والشدّة ولم يزل مثابرًا على المطالعة والدروس حتى أدرك طرائق العرب في تركيب الالفاظ. ثمّ اخذ يراجع تصريف الافعال ويتعلّمها مع حركاتها الخاصّة. وزاد فرحهُ اذ تمكّن من الحصول على كتاب وضعهُ الراهب الاسباني بطرس التلاعي (Pedro de Alcala) فأخذ عنهُ عدّة تعليمات افادتهُ في دروسهِ

وفي اثناء ذلك وقف نونيوس بين كتبهِ العتيقة على كتاب الاجرومية الذي كان استقى من موردهِ مبادئ العربية. فاراد ان يفسّرهُ لتلميذهِ. غير انّ كليزد لم يجد في

شرحهِ ما كان يؤمّلهُ . فعدل عنهُ الى كتاب آخر رآهُ في مكتبة نونيوس وهو كتاب المفصّل للزمخشري من اشهر كتب النحو الذي فيهِ قيل :

اذا ما أردتَ النحوَ فيك محصّلا عليك من الكتب الحسان المفصّلا

فدرسهُ مدّةً واستعان على فهمهِ بشروحٍ كانت في هامشهِ بالاسبانيّة كان يترجمها لهُ بعض البلجكيين مواطنيهِ الساكنين في سَلَمنكة . فداوم برهةً من الدهر على اقتباس فوائدهِ لكنّهُ رأى باختبارهِ الشخصيّ انهُ اولى لهُ ان يعود الى درسهِ فاستأنف العمل وجعل يجهد ذهنهُ ويعمل فكرهُ في نصّ الانجيل ليستخلص منهُ قواعد اللغة . ومتى اطّلع عليهِ آنئذٍ تواميسُ الإعراب التي ليس لها اثر في العبرانيّة

وبقي في سَلَمنكة تسعة اشهر يكدُّ نهارهُ ويسهر ليلهُ ولا ينفصل عن كتبهِ التي كان يدعوها معلّميهِ الخُرس حتى بلغ من علم العربيّة مبلغًا حسنًا بل صنّف في اثناء درسهِ معجمًا جمع فيهِ كل مفردات الانجيل مع هيئات الاسم المختلفة وخصوصًا الجموع وما يتعلّق بتصريف الافعال

وبعد ان نال كليَرْد ما نال من معرفة اللسان العربيّ رأى نفسهُ قادرًا على تدريسها في مدرسةٍ كليّة . لكنّهُ اجّلَ الأمر ليزيد تعمّقًا في معرفة آداب اللغة وفكّر مدّةً في وضع كتب مدرسيّة يتعلّم بها الاوربيّون هذه اللغة الشريفة وخابر لذلك بعض ارباب الطباعة ليحفر لهُ حروفًا تمكّنهُ من نشر هذه التآليف . بيد انّ الطبّاع تخوّف من المصاريف التي يقتضيها هذا المشروع

ولمّا رأى كليرد انهُ سبق نونيوس في علم العربيّة وانهُ لم يوجد في اسبانية رجلٌ كفوء على تعليمهِ (١ عوّل على السفر الى بلاد البرتوغال رجاء ان يزيد كثر معارفهِ العربية . ومما رغّبهُ في هذا السفر انّ ملك البرتغال يوحنّا الثالث كان استدعاهُ ليعهد اليهِ تخريج أخيهِ الامير هنري

فوصل الى يابرة (Evora) وباشر مهنتهُ بغيرةٍ . وكان في اوقات الفراغ يرجع الى

---

١) قد قلنا سابقًا انّ آثار العربيّة كادت تُطمَس في القرن السادس عشر من اسبانية . بل يفيدنا التاريخ انّ هذه اللغة كانت أُصيبت بضربة لازبة قبل ذلك العهد . ومما يُخبر انّ عيسى مُفتي سيفوية ألّف كتابًا في الفقه بالاسبانية لشيوع هذه اللغة بين المسلمين الباقين في الاندلس . وكان الاطبّاء مع ذلك يزاولون دروسها ليقفوا على أسرار الطبّ العربيّ

دروسه المحبوبة . ومن تآليفه في مدينة ايرة كتاب في نحو اللغة العربية اخذتهُ يدُ الضياع ومنها انهُ انجز هناك معجماً مطوّلاً كان اخذ في تصنيفه قبلاً

وبلغهُ انَّ في البرتغال بعضاً من نُطس الاطبّاء يطالعون في العربية تآليف ائمة الطبّ القديم يفضّلون مراجعتها في اصلها بدلاً من درسها في ترجماتها السقيمة اللاتينية الشائعة في اوربّة . فاجتمع كليرد بواحدٍ منهم كان يُدعى انطون فيلبُوس كان مطّلعاً على تآليف ابن سينا . فوجدهُ قليل الخبرة بقواعد اللغة فضلاً عن انهُ ثقيل السمع . فأنس به مع ذلك وتصادقا وامتزجا امتزاج الماء بالراح وجعلا مطالعة قانون ابن سينا ديدنهما مدة سبعة اشهر حتى اتيا على آخره وراجعا قسماً من مصنّفات جالينوس . وكان كليرد لا يدع كلمة غريبة الّا دوّنها في معجمه . وزاد ولعهُ بدرس ابن سينا حتّى طلب لهُ تلميذاً يشرح لهُ القانون فاقنع احد الاطباء ان يتتلمذ لهُ ويسمع منهُ تفسير اعمال الشيخ الرئيس . وكان كليرد مع ذلك يرتاض في الانشاء العربيّ ويصنّف شيئاً من المكاتيب حتى رأى انَّ بضاعتهُ حفلت وازدادت وكان لا يتمنّى الّا شيئاً واحداً وهو ان يجد وجلاً عربي الاصل يمكّنهُ من التكلّم في لُغته ويُسمعهُ لهجاتها فصيحةً صافيةً غير مشوبة بتثاقة العجمة . فشاء الله ان يتمّ بمرغوبه كما سترى

٣

افاد كليرد بعضُ اصحابه انَّ في سرقسطة عبداً عربيَّ المنشأ متضلّعاً باللُّغة العربيّة . فهمَّ بالسفر الى تلك المدينة لكنَّهُ غيَّر وجهتهُ وسار الى اشبيلية اذ عرف انَّ الفخّار الذي علّم استاذهُ نونيوس لسان العرب لم يزل في قيد الحياة . فعند وصوله الى اشبيلية استخبر عن مقام الرجل فدلّوهُ على معمله فوجدهُ كليرد مهتمّاً بصناعته ليس لهُ رغبةٌ البتّة في تدريس العربيّة بل كان يتجاهل ولا يجيب على اسئلة زائره حتّى أيس منهُ

ثمَّ خرج الى سوق البلد فوجد بين العبيد وجلاً تونسيّاً كان استعبدهُ القرصان وعرضوهُ للبيع فابتاعهُ كليرد واتخذهُ لهُ معلّماً وكان شارطهُ ان يدفع لهُ كل يوم اجرةً معلومة . بيد انَّ اهل العبد ارسلوا بعد ثمانية ايّام فدية الاسير واستفكّوهُ وحرموا بذلك التلميذ معلّمهُ

لكنَّ خسارة كليرد كانت زهيدةً لانَّ الله اعاضهُ عن التونسيّ بمن كان افضل علماً منهُ . وذلك انَّ عبدهُ المعتق أعلمهُ قبل فراقه انَّ في مدينة المريّة على بعد ثلاثين ميلاً

من غرناطة عبدًا آخر طويل الباع في آداب اللغة العربيـة محتكًا في دقائقها. فرحل كليرد من وقته الى المرية وابتاع العبد من سيده بثلثمائة دينار ثمَّ تتلمذ لهُ. فعلَّمهُ العبد النطق الفصيح بالعربية ودرَّبهُ في أساليب الانشاء. ليتمكَّن في المستقبل من تعريب الكتب الاجنبيَّة. فبلغ الطالب النشيط بعد زمن قليل من معرفة اللغة مبلغًا لم يظنَّ العبد انَّ رجلًا اجنبيًا يمكنهُ الوصول اليهِ

ومع توفُّر الوسائط التي حصل عليها كليرد رأى أنَّهُ لا يفوز بغاية مقصودهِ من اتقان العربيَّة الَّا بان يسافر الى بلاد يحكي اهاليها هذه اللُّغة وكان لهُ رجاء وطيد ان يلقى في رحلتهِ كتُبًا مخطوطة يبتاعها او ينقلها بالنسخ ولا سيَّما ان آفات الزمان كانت قد ذهبت بكنوز الاندلس الادبيَّة فأضحت فيها المصنَّفات العربيَّة أعزّ من الأبلق العقوق

فركب السفينة في ١٠ نيسان من سنة ١٥٤٠ ووصل بعد أيام الى سَبْتة التي كانت يومئذٍ في حوزة البرتغاليين. فاخذ فيها نصيبًا من الراحة وقصد بعد اربعـة أيام مدينة تطاون. فلما دخلها اجتمع بأحد علمائها الوطنيين كان درس في فاس العلوم النحويَّة مدَّة خمس سنوات فباحثهُ في اللغة وفاز عليهِ بقصبة السبق

وفي ٤ أيار من السنة حطَّ في فاس عصا التسيار ثمَّ دخل على ملكها وسلَّم عليهِ بالعربيَّة. فسُرَّ بهِ الملك واظهر لهُ من الحفاوة والاكرام ما يليق بمثلهِ. ثمَّ تباحثا ملِيًّا في العربيَّة فزاد اعتبار الملك لهذا الاجنبيّ الذي فاق ابناء جنسهِ بفصاحة لهجتهِ وطلاقـة لسانهِ وهو لم يسمع سابقًا من امثالهِ ومن التجار الغرباء المستوطنين حاضرتهُ سوى لغة ركيكة اشبه ببطانة الهَمَج. وممَّا كان يزيد سلطان فاس انذهالًا انهُ كان يرى كليرد ذكيَّ الفؤاد مطَّلعًا على ضروب المعـارف اللُّغويَّة لا يجاريهِ احدٌ من علماء فاس في ميدانها. فشاع صيتهُ في البلد واخذ الشيوخ يتواردون اليهِ ليعجموا عودهُ فكانوا يعودون والخبرُ يزيد عن الخبَر. وكانوا يثنون خصوصًا على رياضة اخلاقهِ ودماثة طبعهِ وحسن صفاتهِ ويعظِّمون رغبتهُ في درس العربيَّة ويساعدونهُ في ذلك ما امكنهم

اما كليرد فلم يُضِع من وقتهِ ساعةً بل جعل يسأل العلماء ويعرض عليهم مشاكلهُ ويستخبرهم عن احوال البـلاد وعادات القوم. وكان يدوِّن كلَّ ذلك في دفاترهِ. ثمَّ شرع يطلب المخطوطات فيبتاع بعضهـا ويستنسخ بعضها والملك يشطهُ على العمل ويرخص لهُ جمع هذه الطرائف الادبيَّة. وأذن لهُ ان يستدعي من غرناطة معلِّمهُ الذي

كان ابتاعهُ في المزيّة ودرس عليهِ. وكان هذا العبد معروفًا في بلاد مرّاكش فلمّا عاد اليها بقي في خدمة كليزد يساعدهُ في تكميل دروسهِ وهو مصمّم العزم على مصاحبتهِ الى بلجكة اذا ما عاد اليها

وبينما كان كليزد محفوفًا بالاكرام يرى الدهر موافقًا والريح رخاء اذ قلب لهُ الزمان ظهر المجنّ. فتغيّرت نحوهُ نيّات الملك وحاشيتهِ. وجاءهُ امر من السلطان انّ يكفّ عن درس العربيّة وعن اقتناء الكتب المخطوطة. بل دخل عليهِ الشرطة وفصلوا عنهُ معلّمهُ الذي ابتاعهُ من مالهِ بعد ان ادّرا لهُ حقّهُ. فبقي المسكين وحدهُ منفردًا يتجنّبهُ الكلّ كأنّهُ مصاب بعدوى فاشية اشبه باسير منهُ برجل حرّ وكان يرى الاخطار تتعقّبهُ حتى لم يعد يأمن على حياتهِ

وان سأل السائل وما الداعي لانقلاب الاحوال على كليزد ومن سبّب لهُ هذه المعاملة السيّئة اجبنا انّهُ كان لدولة البرتغال في فاس قنصلٌ دنيّ الاخلاق حسود. فلمّا رأى ما نالهُ البلجكيُّ من الحظوى لدى ملك فاس وخوّله استفزّهُ الحسد الى ان يسعى بهِ ويشنع نيّاتهِ. فوقع كلامهُ موقع الاستحسان وتغيّر عليهِ اهل فاس

فلمّا رأى كليزد ما جرى لهُ من نكبات الدهر وانهُ اضحى في ارض غريبة لا انيس لهُ ولا جليس تحفّز للسفر وبعد أيّام قلائل خرج من المغرب كالطريد اللهيف. بيد انهُ كان استفاد من رحلتهِ هذه وسع الناطقين بالضاد وادرك اسرار لغتهم فعاد الى اسبانية واضيًا بما حصل عليهِ

وفي بدء سنة ١٥٤٢ نرى كليزد في غرناطة مشغوفًا بدروسهِ العربيّة. وكان يفكّر في الرجوع الى المغرب غير انّ المنيّة حالت دون عزمهِ وكانت الهموم والاسقام توالت عليهِ في آخر حياتهِ فمات في غرناطة وقُبر في قصر الحمراء الذي شيدهُ ملوك الاندلس من بني اميّة

ودُفنت في قبر كليزد تلك المساعي الخطيرة التي تكلّفها لينشر الدروس العربيّة في اوربّة. وكانت غايتهُ ان يجعل مركز هذه الدارس في كليّة لوفان. وكان يريد ان يُنشئ ثمّت مدارس يعلّم فيها المعلّمون اصول العربيّة من صرف ونحو وبيان مع اللغات العاميّة الشائعة في الشرق بحيث يمكن الطلبة ان يكتبوا ويتكلّموا كأهل الشرق ولهذا السبب كان يطلب لهُ معلّمًا وطنيًا بارعًا في لُغتهِ. على انّ مشروع كليزد الذي حبط وقتئذٍ قد

تمَّ بالفعل في أيامنا فان عواصم اوربَّة كباريس وفينَّة وبرلين ولندن ترى اليوم هـذه المدارس العربيَّة زاهيَةً يتخرج بها عدد غفير من الشبَّان الغربيين

الَّا انَّ الفضـل للمتقدِّم. فانَّ كليزد هو الذي نهج الطريق للمحدثين وادرك منافع عمل اثير لم يخرج الى حيز الفعل الَّا بعد ثلاثة اجيال بفيف. فمن لا يتعجب من عزيمة هذا الرجل الذي لم يدَّخر وسعاً مدة ١٢ سنة في سبيل غايتهِ ونشر اللغة العربيَّة بين ابناء جلدتهِ وهذا ما حملهُ على الدرس الطويل والاسفار المتعدِّدة وجمع الخطوطات العربية او نسخها. وكان كلفهُ باحراز هذه الكنوز الادبيَّة ساقهُ الى ان يطلب من نائب ملك اسبانية لويس دي منذوزة صديقهِ ان يوصي ربَّاني السفن المبحرة الى مراكش والجزائر بان يبتاعوا ما يجدونهُ من هذه التآليف القديمة

وممَّا يزيد فضل كليزد انهُ لم يرمِ فقط بدرسهِ العربية انشاء مدارس تنشر تعليم هذه اللغة بل كان يريد ان يساعد شعوب الشرق ويردَّ الضالِّين منهم. ومحبَّتهُ لاهل دينهِ ادَّت بهِ الى ان ينفق مبالغ عظيمة ليفتدي بعض العبيـد النصارى الذين وجدهم في المغرب حتى انهُ اصبح هو نفسهُ فقيراً لا يملك شيئاً. وزد على ذلك ان الدولة البرتغالية بعد سعايات قتلها في فاس رفضت ان تدفع لهُ راتبهُ الذي اكتسبهُ بتعليم الامير هنري شقيق الملك فصار في اسوإ حال. على انَّ هذه البلايا كلها ما كانت لتثني عزمهُ بل كان يقول: ولو قُضي عليَّ بان استعطي فلا ادع دروسي ولا احيد عن مقصودي

أفلا يحق بنا بعد هذا ان نثني على كليزد الثناء الجميل وننظمهُ في عداد مشاهير المستشرقين الذين شرفوا عصرنا هذا كدي سادي وكاترمار ورينو في فرنسة. وكفريتاغ وفلَيشر وسوسين وفُلدك في المانية. وكدوزي ودي غوي في هولندة. فلا مراء انهُ لو عاش في عهد هؤلاء السراة لبرَّز بينهم واصاب لهُ ذكرًا مؤبدًا (١

---

(١) اخذنا ملخص مقالتنا هذه من كتاب حديث نشرهُ في بلجكة احد علمائها الافراد وهو الاستاذ فيكتور شوفين الذي اثبتنا مراراً على مصنَّفاتهِ الشرقيَّة في مجلتنا هذه واسم كتابهِ:

Etude sur la vie et les travaux de Nicolas Clénard, Liége, 1900

على اننا لم نقتطف من هـذا الكتاب الَّا بعض فوائده فان المؤلف قد اودعهُ عدَّة اعلامات ونبذ تاريخيَّـة كثيرة الجدوى نتأسف على ان ضيق المكان لا يسمح لنا بنشرها. وما يدل على فضل هذا التصنيف ان المجمع العلمي الملكي في بلجكة اهدى صاحبهُ جائزة الشرف